

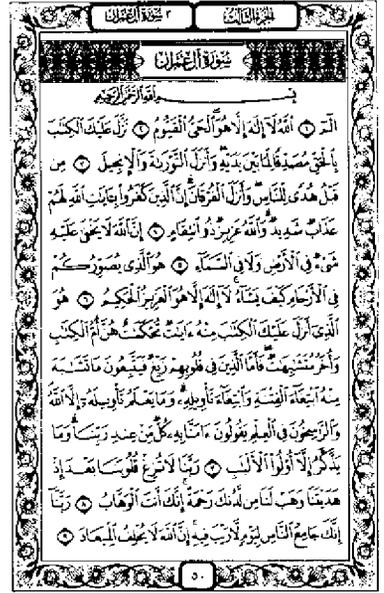
فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعال بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيها، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب السابقة، فهو المركزي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعال ﴿وأنزل التوراة﴾ أي: على موسى ﴿والإنجيل﴾ على عيسى ﴿من قبل﴾ إنزال القرآن ﴿هدى للناس﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي: الحجج والبيّنات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جليلة ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلماذا قال ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي: بعد ما بينها ووضحها وأزاح العليل ﴿لهم عذاب شديد﴾ لا يُقدَّر قدره ولا يدرك وصفه ﴿والله عزيز﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء، ﴿ذو انتقام﴾ ممن عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، من جليلها وحفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا يتألف علمهم، وهو تعال يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلماذا قال

ربنا ومليكتنا والهنأ الذي لم نزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فنعمتك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع التعم تبع لها، فتسألناك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرتنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبيذوا أمرك، فانصرتنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتحذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصل الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بالوحيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الأئوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام ﴿القيوم﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره



أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغسوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه مغفوع عنه، وكذلك لا يخفى من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفسه أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ أي: تكاليف مثقفة ﴿كما حملت على الذين من قبلنا﴾ وقد فعل تعال فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بها دفع المكارة والشورور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أنت مولانا﴾ أي:

والكيفية مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيةها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيةها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيةها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكلمون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف **«الراسخون»** على **«الله»** فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون **«كل من المحكم والتشابه من عند ربنا»** وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض^(١)، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع التشابه قال **«وما يذكر»** أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا **«أولوا الألباب»** أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد التشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين **«فأما الذين في قلوبهم زيغ»** أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد **«فيتبعون ما تشابه منه»** أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى التشابه، ويعكسون الأمر فيحلمون المحكم على التشابه **«ابتغاء الفتنة»** لمن يدعونهم لقولهم، فإن التشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لو صرح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله **«وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله»** للمفسرين في الوقوف على **«الله»** من قوله **«وما يعلم تأويله إلا الله»** قولان، جهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها **«والراسخون في العلم»** وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على **«إلا الله»** لأن التشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيةها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للتوقيف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله **«الرحمن على العرش [استوى]**^(٢) فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

«هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقيح، وذكر وأنتى **«لا إله إلا هو العزيز الحكيم»** تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

٧-٩. «هو الذي أنزل عليك الكتاب» منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أمانا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب * ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب * ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد **«القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»** فهو مشتمل على غاية الإتيان والإحكام والعدل والإحسان **«ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون»** وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقتها لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله **«منه آيات محكمات»** أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال **«هن أم الكتاب»** أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، **«و»** منه آيات **«آخر متشابهات»** أي:

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفيه تنبيه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يتبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا.

والتصاري، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار النوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فيس المساهد مهادهم، وبس الجزاء جزأهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فتنتين التقاتل﴾ وهذا يوم بدر ﴿فتنة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أصعاف المؤمنين، فلماذا قال ﴿يروهم مثلهم رأي: العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزموهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وحاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطله، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والمعد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفائته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿١٤ - ١٧﴾ ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والححر ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ قل أولئككم بخير من ذلكم للذين اتقوا

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب * قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد * قد كان لكم آية في فتنتين التقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يروهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار * يخبر تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿ويدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظلماً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا مما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: عظيمة توفقتنا بها للخيرات وتعصنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، البين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لمنشأه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية عما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمة المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار * كذب أي فرعون والذين من قبلهم كذبوا

(١) في الأصل: ممن، ولعل الثواب ما أثبت.



﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ هذا تقرير من الله تعالى لتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادته خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامة العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم

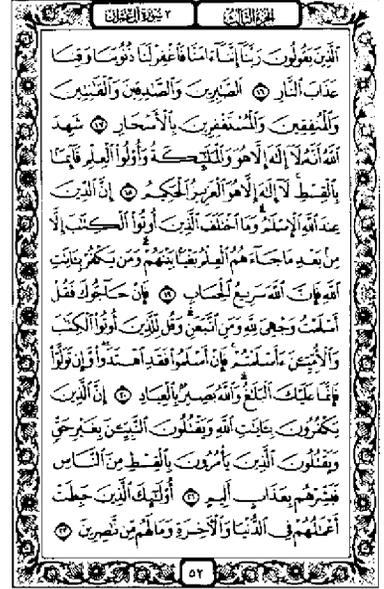
عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمننا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴿يخبر تعالى أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالى ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلق بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يباليون على أي: وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زاداً لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحاناً لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقاً يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوا بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ فجعلوها معبراً إلى الدار الآخرة ومتجراً يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زاداً إلى ربهم. وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغتربين بها وتزهيد لأهل العقول النيرة بها، وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلك المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿ربنا إننا آمننا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقبهم شر آثارها وهو عذاب النار، ثم فصل أوصاف التقوى. فقال ﴿الصابرين﴾ أنفسهم على ما يحبه الله من طاعته، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ﴿والصادقين﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم ﴿والمنفقين﴾ مما رزقهم الله بأنواع النفقات على المحاويع من الأتارب وغيرهم ﴿والمتغفرين بالأسحار﴾ لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم، حالاً ولا مقاماً، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم، ويتوقعون أوقات الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتضمنت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع ينقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تنبيهاً على أنه يجب إشارتها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتقون، ثم فصل خصال التقوى، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟

من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المذئذرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: لعلبة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيد الله هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للمهلك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية الثقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حيي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحث عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا

بالقسط﴾ أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتديبه بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيد الله فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة الثقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة الثقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقديره، ومجبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة الثقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأشياء فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدير لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلماذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضراً، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة



المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائلون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهادته تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تركيبتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيد الله قرر عدله، فقال: ﴿قَالَمَّا

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحَاتِنَ الْكُتُبِ بِمَعْنَى كَيْفَ
 اللَّهُ لِحُكْمِ بَيْنِهِمْ تَوَلَّى فَوَيْقَ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
 ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
 وَمَعَهُمْ فِي بَيْنِهِمْ مَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ ﴿٢٤﴾ كَيْفَ إِذَا
 جَمَعْتَهُمْ يَوْمَ تَنْزِيلِ يَوْمِ يُؤْتَى فَمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ
 وَمَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ تَعَالَى عَنَّا كَيْفَ كُنَّا
 مِن نَشَاةٍ وَتَعَالَى عَنَّا كَيْفَ كُنَّا مِن نَشَاةٍ وَتَعَالَى عَنَّا
 نَشَاةَ يَوْمِ تَنْزِيلِ الْكُتُبِ عَلَيْكَ الْكُتُبِ قُلِ اللَّهُمَّ
 فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّى الْفَلَاحِ وَاللَّيْلِ وَتَجَرَّجَ الْفَتْرَةَ الْفَتْرَةَ
 وَتَجَرَّجَ الْفَتْرَةَ الْفَتْرَةَ وَتَجَرَّجَ الْفَتْرَةَ الْفَتْرَةَ
 لَا تَجِدُ الْفَتْرَةَ الْفَتْرَةَ الْفَتْرَةَ الْفَتْرَةَ الْفَتْرَةَ
 وَمَنْ يَشْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا
 نَشَاةٍ وَتَعَالَى عَنَّا كَيْفَ كُنَّا مِن نَشَاةٍ وَتَعَالَى عَنَّا
 كَيْفَ كُنَّا مِن نَشَاةٍ وَتَعَالَى عَنَّا كَيْفَ كُنَّا مِن نَشَاةٍ
 إِنَّ عَمَلًا مَّا مَنَعَهُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾
 مَا لِيَ السَّوْتِ وَمَا لِيَ الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾

من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع ويتقاع، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرتهم على معاصي الله هو قولهم ﴿لَنْ نَمْسَسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم منتهم وغرهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلماذا قال تعالى ﴿كَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا يَمْلِكُ نَفْسٌ مِّنْ أُمَّةٍ قَدِ افْتَرَتْ عَلَى اللَّهِ أَلْفًا مِّنْ دُونِ الْحَقِّ لِيُفْتِنَهُمْ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَعْيُنُ عَنِ الْعَالَمِ﴾ وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوَلَّى الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءٍ وَتَنْزَعَ الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزَّزَ مِنْ تَشَاءٍ وَتَذَلَّ مِنْ تَشَاءٍ بِيَدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تَوَلَّى اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّى النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَتَجَرَّجَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَجَرَّجَ

ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتزويرهم، وتوقيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بصد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنایات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقتمه مثقال ذرة، بل قد أسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، فيحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحَاتِنَ الْكُتُبِ بِمَعْنَى كَيْفَ اللَّهُ لِحُكْمِ بَيْنِهِمْ تَوَلَّى فَوَيْقَ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْتَدُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * كَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا يَمْلِكُ نَفْسٌ مِّنْ أُمَّةٍ قَدِ افْتَرَتْ عَلَى اللَّهِ أَلْفًا مِّنْ دُونِ الْحَقِّ لِيُفْتِنَهُمْ لِيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَعْيُنُ عَنِ الْعَالَمِ﴾
 ﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوَلَّى الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءٍ وَتَنْزَعَ الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزَّزَ مِنْ تَشَاءٍ وَتَذَلَّ مِنْ تَشَاءٍ بِيَدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تَوَلَّى اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّى النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَتَجَرَّجَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَجَرَّجَ

الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلماذا قال تعالى ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند حجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد أسلمت وجهي لله ومن اتبعني أي: أنا ومن اتبعني قد أقرنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لرنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا بطلانه، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيدهم بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيع ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقارهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلتها الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانفض كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلماذا قال ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من النصارى واليهود ﴿والأميين﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿أسلمتم فإن أسلموا﴾ أي: بمثل ما أمنتكم به ﴿فقد اهتدوا﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وإن تولوا﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تحالفه ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ وقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلماذا قال ﴿والله بصير بالعباد﴾

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق

أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مديرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والصد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتب، ثم قال تعالى:

﴿٢٨ - ٣٠﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تنقوا منهم نفاقاً ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير * قل إن نخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير * يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد* . وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن موالات الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالات الكافرين يأمر بموالات الله وموالاته المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ فمن وإلى الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويقتولوا أولياءه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصدقتهم، والميل إليهم

واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرها عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب رجلكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وتعز من تشاء﴾ بطاعتك ﴿وتذل من تشاء﴾ بمعصيتك ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضيء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزروع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا



الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يقول الله لنبيه ﷺ ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، صفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصرف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: ﴿توحي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم ويؤتاه أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج»: وأما قوله: ﴿إلا أن تنقوا منهم نفاقاً﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والنفاق ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً أبلغ، فالؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غاية أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبعه الله إلا لمن أكره الخ.

يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص .

﴿٣٢﴾ ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مرید ﴿كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ فلماذا قال: ﴿فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكان في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

﴿٣٣ - ٣٧﴾ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربهما بقبول حسن وأنبئتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أتى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم

الله﴾ ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض﴾ ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لثلاث يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال ﴿ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ فنسأله أن يمن علينا بالخذل منه على الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويبغضه .

﴿٣١﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾ أي: ادعيتهم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاه، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول

والركون إليه، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين . قال الله تعالى: ﴿إلا أن تنقوا منهم نقاة﴾ (١) أي: تحافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية . ثم قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي: فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿وإلى الله المصير﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويميزهم، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السماء والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه عملاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور ويبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصبح لعباد الله، وفي ضمن أخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفي به النفوس بأعمالها فلماذا قال ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدتها حزناً، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليرتكبها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يا حسرتا على ما فرطت في جنب

﴿وَجعلناهم من المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

وإصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن^(١) معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

وإصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيقات، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

مستقيم ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذه ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصة علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحيهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما نفهم، وأن لا نزال نزري^(٢) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكراهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إذ قالت امرأة عمران آل الله خير مما نعبد وإنا على خلقنا كنا كافرين﴾ أي: والدة مريم لما حملت ﴿رب اني نذرت لله ما في بطني محرراً﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فقبل مني﴾ هذا العمل المبارك ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها أنثى﴾ كأنها تشرفت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقِعاً، ففي كلامها [نوع]^(٣) عذر من ربه، فقال الله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وليس الذكر كالأنتى وإني سميتها مريم﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وإني عهدتها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ دعت لها ونذريتها أن يعيدهم الله من الشيطان الرجيم

والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

وإصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن^(١) معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

وإصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيقات، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

وإصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي: حصل التناسب والنشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آباؤهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط

﴿٣٨﴾ = ﴿٤١﴾ ﴿هناك دعا زكريا﴾ ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين * قال رب اني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمياً واذكر ربك كغيره أوسمبح بالعشي والإبكار﴾ أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له

(٣) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو

- والله أعلم - أنها كما أثبت.

(١) في الأصل: ومن.

(٢) في الأصل: نزدي.

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا عمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ **﴿لم إلي مرجعكم﴾** أي: مصير الخلائق كلها **﴿لأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾** كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخفي، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال **﴿لأما الذين كفروا﴾** أي: بالله وآياته ورسله **﴿لأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾** أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار **﴿وما لهم من ناصرين﴾** ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شعفاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، **﴿وأما الذين آمنوا﴾** بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به **﴿وعملوا الصالحات﴾** القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين **﴿فولهم أجورهم﴾** دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موقراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه **﴿والله لا يحب الظالمين﴾** بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه **﴿ذلك لتلوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم﴾** وهذا منة عظيمة على رسوله

الأنصار **﴿نحن أنصار الله﴾** أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: **﴿أما بالله﴾** **﴿لأكفينا مع الشاهدين﴾** أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلماذا قال تعالى هنا **﴿مكروا﴾** أي: الكفار بإزادة قتل نبي الله وإطفاء نوره **﴿ومكروا الله﴾** بهم جزاء لهم على مكروهم **﴿والله يحبر المكبرين﴾** رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين **﴿إذ قال الله يا عيسى إني موفيك وراحمك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾** فرجع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالإثم العظيم بينهم أنه رسول الله، قال الله **﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾** وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى **﴿وإذ كفت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾** حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى **﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾** ثم قال تعالى: **﴿وجاعل الذين يبعثون لوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾** وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

بترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال **﴿ولا حمل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾** فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متصفاً لها ومقرراً **﴿وجعلكم بأية من ربكم﴾** تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله **﴿لأنقوا الله﴾** بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله **﴿إن الله ربي وربكم لاعبده﴾** استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مبدئ مخلوق، كما قال **﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾** وقال تعالى: **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾** إلى قوله **﴿ما قلت لهم إلا ما أمرني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾** وقوله **﴿هذا﴾** أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله **﴿صراط مستقيم﴾** موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، **﴿للما أحسن عيسى منهم الكفر﴾** أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهوما يقتله وسعوا في ذلك **﴿قال من أنصاري إلى الله﴾** من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله **﴿قال الجواريون﴾** وهم



عذاب لهم، قال تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ ﴿وما يشعرون﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم وأنهم لا يضررونكم شيئاً ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ أي: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات، فهذا هيهم عن ضلالهم، ثم ويخهم على إضلالهم الخلق، فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم يهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما وكنتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يمتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفة حتى يؤثره، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلموا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون

حينئذ مسلماً، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمع له فيه، وفيها أيضاً حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ، ثم قال تعالى:

﴿٦٩ - ٧٤﴾ ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ * يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون * وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يجتص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يحذر تعالى عبادة المؤمنين عن مكر هذه الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، كما قال تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئاً سعى بجهده على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهذا قال تعالى ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة

أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضاً فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبا الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم وخبت طويتهم، كما قال تعالى ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآية وأيضاً فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلمن بإسلامه، إخباراً بيقينه وشكراً للنعمة ربه.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجونني في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ * ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتكم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمع لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أحاب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المحاجة في شأن إبراهيم، الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزل إلا من بعد إبراهيم، فكيف ينتسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم مقدم عليهم، فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك، الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله



ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين قال تعالى ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب ليتبينه للناس ولا تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم﴾ . ثم أخبر تعالى عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿لعلمهم يرجعون﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه عجباً بأنفسهم وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿وقال بعضهم لبعض لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي: لا تثقوا ولا تطمئنا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالخاصل أنهم جعلوا عدم أخبار

المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الهدى هدى الله﴾ فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إشارة، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه وحبث نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم والله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلهاذا قال تعالى ﴿قل إن الفضل بيد الله﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يؤتيه من يشاء﴾ من أتى بأسبابه ﴿والله واسع﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عليم﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالأخرة وهي نعمة الدين ومتمماته ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يصفه الواصفون ولا ينظر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين * إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم﴾ يجبر تعالى عن حال أهل الكتاب في

الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكتهم الحق، فأخبر أن منهم الخائن والأمين، وأن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ وهو المال الكثير ﴿يؤده﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى، ومنهم ﴿من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى وأحرى، والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه ليس عليهم ﴿في الأميين سبيل﴾ أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأميين حرمة، وأجازوا ذلك، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يجبر عن حكم الله ليس يجبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، فلهاذا قال ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وهذا أعظم إثم من القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال ﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم.

﴿من أوفى بعهده وأتقى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوا الله وعدم

(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

الذال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك .

﴿٧٩ - ٨٠﴾ ما كان لبشر أن

يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة لم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون * وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقلوه

﴿ما كان لبشر﴾ أي: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ فهذا من أجل المحال صدوره

من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أقبح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق

على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس نبياً عن الأمور القبيحة، فلماذا قال ﴿ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلما معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله ﴿بما كنتم تعلمون﴾ الخ، بآء السببية، أي:

بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا عبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم ﴿أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد

التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: ﴿إن الذين يظنون بعهد الله وأيمانهم نعماً قليلاً﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقتطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهؤلاء ﴿لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿ولا يكلمهم الله﴾ يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿ولا يذكركم﴾ أي: يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية .

﴿٧٨﴾ وإن منهم لفرقة بلوون

السننهم بالكتاب لمحبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون السننهم بالكتاب، أي: يميلونه ويجرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللم والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله ﴿لمحبوه من الكتاب﴾ أي:

يلوون السننهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتزليل اللفظ



من الله عليه بالنبوة، فمن قذح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً .

﴿٨١ - ٨٢﴾ وإذا أخذ الله ميثاق

النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة لم جاءكم رسول مصدق لما معكم لعل منن به ولتصنونه قال الفررثم واخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن نول بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسولا مصدقاً لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه يأخذوا ذلك على أئهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمداً ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدرکه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قرره تعالى



﴿قَالُوا الرُّسُلَا أَي: قبلنا ما أمرتنا به على الراس والعين﴾ **﴿قَالَ﴾** الله لهم: **﴿فَانشَهُدُوا﴾** على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، قال **﴿وَالسَّامِعُكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** فمن تولى بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله **﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿٨٣﴾﴾ **﴿الْمُهْرَ دِينَ﴾** الله يهلون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون **﴿أَي:﴾** يطلب الطائبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله **﴿وَلَهُ﴾** أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً **﴿أَي:﴾** الخلق كلهم متقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المتقادون لعبادة ربه، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويميزهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿٨٤﴾﴾ **﴿قُلْ﴾** أمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وهارون والنبيون من ربهم لا نسرق بهن أحد منهم ونحسن له مسلمون **﴿تقدم﴾** نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى.

﴿٨٥﴾﴾ **﴿وَمَنْ يَمْنَعْ﴾** غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين **﴿أَي:﴾** من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً واتباعاً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والنفوس بشوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

﴿٨٦ - ٨٨﴾﴾ **﴿كَيْفَ﴾** يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين **﴿أولئك﴾** جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين **﴿مخالدين﴾** فيها لا يخلف عنهم العذاب ولا هم ينظرون **﴿هذا﴾** من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات **﴿والله﴾** لا يهدي القوم الظالمين **﴿فهؤلاء﴾** ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبعياً واتباعاً لأموالهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحرى أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال **﴿أولئك﴾** جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين **﴿مخالدين﴾** فيها لا يخلف عنهم العذاب ولا هم ينظرون **﴿أَي:﴾** لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته، **﴿ولا﴾** هم ينظرون **﴿أَي:﴾** يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

﴿٩٠ - ٩١﴾﴾ **﴿إِنَّ﴾** الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن نقبل ثوبتهم **﴿وأولئك﴾** هم الضالون **﴿إِنَّ﴾** الذين كفروا وماتوا وهم كفار لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين **﴿يخبر﴾** تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل ثوبتهم، أي: لا يوقفون ثبوتة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى **﴿ونقلب﴾** أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة **﴿فلما﴾** زغوا أزواغ الله قلوبهم **﴿فالسبب﴾** ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحججة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال **﴿وأولئك﴾** هم الضالون **﴿وأي:﴾** ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعيذاً بالله من حالهم.

﴿٩٢﴾ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾ أي: تدرکوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع الثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة، ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفق، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحجوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي: وجه كان مثاباً عليه العبد، سواء كان قليلاً أو كثيراً، محبوباً للنفس أم لا، وكان قوله ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ مما يروهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احتزرتعالى عن هذا الوهم بقوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيّق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

﴿٩٣ - ٩٥﴾ ﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالٌ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون * قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا بعميسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، لأنهما قد أنيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحرير فمن تمام الإنصاف في المجادلة الزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني

إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: من غير تحريم من الله تعالى، بل حرمة على نفسه لما أصابه عرق الشسا نذر لنن شفاه الله تعالى ليحرم من أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل وألبانها وتبعه بنوه على ذلك وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى ﴿فَبَطَلْهُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَحَلَّتْ لَهُمْ﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعدا، فلهذا قال تعالى ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي: ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عناداً وتكبيراً وتجبراً، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلهذا قال تعالى ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بالستهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً و يقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركه حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ

لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَهُوَ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربه فتغفر أوزارهم، وتقال عشارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى ﴿لِيُشْهِدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فيما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: أدلة واضحات، وإبراهيم قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أولياته وأنبيائه، فمن الآيات

للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربه فتغفر أوزارهم، وتقال عشارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى ﴿لِيُشْهِدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فيما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: أدلة واضحات، وإبراهيم قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما من به على أولياته وأنبيائه، فمن الآيات

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً خرمه هذا الواجب الذي أوجبه، وتخويفاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجهه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذم غيرهم، لأن المعنى يؤل إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقاً بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه التكلفة البدئية فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان مَنْ هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحمله على

باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرأ فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين برهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة همتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهجه، ومن جعله حرماً أن كل من أراد بسوءه فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفييل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم هاهنا كلاماً حسناً أحببت إيراداً لشدة الحاجة إليه قال فائدة: «والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «والله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجع هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «والله على الناس»، ويرجع الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمل. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداء، وهو الحج.



﴿مقام إبراهيم﴾ يحتمل أن المراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنان الكعبة لما ارتفع البنان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البدئية والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات بينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرأ، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد

هذا الفرض العظيم .

وتأمل سر البذل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين ، مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين ، وهذا من فوائد البذل تقوية المعنى وتأكيد بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين ، اعتناء به وتأكيد لشأنه ، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحججه وإن لم يطلب ذلك منها ، فقال : ﴿ إن أول بيت ﴾ الخ ، فوصفه بخمس صفات : أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، الثاني : أنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدم ولا أنفع للخلاق ، الثالث : أنه هدى ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة ، حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع ما تضمن من الآيات البيئات التي تزيد على أربعين آية ، الخامس : الأمن الحاصل لدخله ، وفي وصفه هذه الصفات دون إيجاب قصده ما يعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرئين الديار وتئات بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدل على الإعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿ وطهر بيته ﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته ، فهذه المثابة للمحبين يشوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياً ، فلا الوصال يشفيهم ولا العباد يسليهم ، كما قيل :

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهلي ، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواه ، وهو الوجوب المفهوم من قوله « على الناس » ، أي : يجب لله على الناس الحج ، فهو حق واجب لله ، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها ، ففي غاية البعد فتأمله ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما تقول : لله عليك الصلاة والزكاة والصيام .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي ، وهو الأكثر ، ويلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ ﴿ قل تعالوا أتئذ ما حرم ربكم عليكم ﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه ، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيداناً بأنه يجب الحج على أي : سبيل تيسرت ، من قوت أو مال ، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ ومن كفر ﴾ أي :

لعدم التزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد ، وإنما في ذكر استغناؤه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم « العالمين » عموماً ، ولم يقل : فإن الله غني عنه ، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار ، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه ، ثم أكد هذا المعنى بأداة « إن » الدالة على التأكيد ، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد

باب « يعجبني ضرب زيد عمراً » وفيما يفصل فيه بين المصدر وقاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) ، فلا يصار إليه . وإذا ثبت أن « من » بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى « الناس » كأنه قيل : من استطاع منهم ، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن ، وحسنه هاهنا أمور منها : أن « من » واقعة على من لا يعقل ، كالاسم المبدل منه فارتبطت به ، ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ، ولو كانت الصلة أعم لقع حذف الضمير العائد ، ومثال ذلك إذا قلت : رأيت إختوتك من ذهب إلى السوق منهم ، كان قبيحاً ، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : البس الشباب ما حسن وجميل ، يريد منها ، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز ، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب .

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه ، فإذا كان أعم وأضفت إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ، وبما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

وأما المجرور من قوله « لله » فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع من سبيل ، كأنه نعت نكرة قدم عليها ، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل ، والثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل ، فإن قلت : كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل ؟ قيل : السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما ، كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصلاح تعلق المجرور به ، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير ، لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك لجانل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فصلوات الله وسلامه عليه﴾ موصول له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله .

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقيقاً ثمانيه ولا توتروا إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا لعمرة الله عليكم إذ كنتم أعداء فأثاب الله إيمانكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ووزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها

رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ يربخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده مهتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعميقها عما جعلت له، وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ فلماذا توعدهم هنا بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل يحيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء، فمجازيكم عليه أشد الجزاء لما توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطهروا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وذلك لحسدكم وبغيتهم عليكم، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لشبث المؤمنين على إيمانهم، وعدم تنزيلهم عن إيمانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تفلح﴾ عليكم آيات الله ولها عليكم رسوله ﴿أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداني وأنثم منه الركن أطلب بردما بقلبي من شوق ومن هيمان فوالله ما ازداد إلا صباية ولا القلب إلا كثرة الخفقان فيا جنة التأوى وبأغاية المنى وبأمنيتي من دون كل أمان أبت غلبات الشوق إلا تقربا إليك فعمالي بالعباد يبدان وما كان صدى عنك صدملالة ربي شاهد من مقلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك والبيكا فلبى البيكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذ أنسى سبيلهُ هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بل إنه يبلى والهوى على حاله^(١) لم يبيله الملوان^(٢) وهذا محب قاده الشوق والهوى بغير زمام قائد وعنان أتاك على بعد المزار ولو نونت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

﴿٩٨ - ١٠١﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لعل ما تعملون﴾ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن لبغوا بما عوجوا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطهروا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وكيف تكفرون وأنتم تفلح عليكم آيات الله ولها عليكم

(١) في الهامش كتب: أي الهوى .

(٢) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله :

بل إنه يبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي :

بل إنه يبلى التصبر والهوى

(٣) في الأصل: بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت .

على حاله لم يبيله الملوان

على حاله لم يبيله الملوان



على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وما الله يريد ظلماً للعالين﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحدًا شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿١٠٩﴾ ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: هو المالك لما في السموات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها.

﴿١١٠ - ١١٢﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا إلا بحيل من الله وحيل من الناس وياؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ * يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخيراً في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتثلت أمر ربه واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ولو آمن أهل الكتاب

لكان خيراً لهم﴾ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأوليائه الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمنون ﴿إلا بحيل﴾ أي: عهد ﴿من الله وحيل من الناس﴾ فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى وقد ﴿ياؤوا﴾ مع ذلك ﴿بغضب من الله﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ المنوجة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعتاداً﴾ ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشرف مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والحماية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿١١٣ - ١١٥﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

والسرور والنعيم والخبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿ولقاهم نصره وسروراً﴾ نصرته في وجوههم وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على وجه التوبيخ والتفريع: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: كيف أترمت الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ فيهنؤون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ وإذا كانوا خالدون في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمة تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿تلك آيات الله نتلوها﴾ أي: نقصها ﴿عليك بالحق﴾ لأن أوامره ونواهيها مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل



والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما راهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفي سير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاههم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكسأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعالى **﴿وَأَذَاتُ مِّنْ أَهْلِكَ﴾** والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة **﴿نبوءة المؤمنين مقاعد للقتال﴾** أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللاتق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يبشّر بتدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذلك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يبشّر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه **﴿والله مسميع﴾** جميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه **﴿عليهم﴾** بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً والله سميع عليهم بكم، يكلوكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى موسى وهارون **﴿إني معكما أسمع وأرى﴾** ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما **﴿همت طائفان﴾** من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلماذا قال

المؤمنون **﴿﴾** هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يجيئون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما يتألمهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرأ يسيراً، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله **﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها﴾** وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العمد بالأموال والرجال والعُدَد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيتهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون

أولاء محبوبيهم ولا يجهونكم ولو آمنوا بالكفاس **﴿قله﴾** أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان **﴿وإذا لغوكم قالوا أمنا وإذا خللوا عضوا عليكم الأنامل﴾** وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم **﴿الل مؤمنوا بمهبطكم إن الله علم بمدات الصدور﴾** وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضررون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرتون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فيمتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إن تمسككم حسنة﴾ كالتصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم **﴿نورهم﴾** أي: تمنعهم وتحزنهم **﴿وإن نصيحتكم سهلة يفرحوا بها وإن نصبروا ولنقلوا لا يضرركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾** فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضرركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء - **﴿١٢١ - ١٢٢﴾** **﴿وإذا غدوت من أهلك نبوءة المؤمنين مقاعد للقتال والله مسميع عليهم﴾** إذ همت طائفان منكم أن تغشوا الله وليهما وعلى الله ليهن كل



يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض.

﴿١٢٧﴾ **﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾** يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمه مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فيهنه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهب لبعض قوتهم، الأمر الثاني أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويبدلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل لهم.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ **﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾** والله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب

فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتسروا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال **﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾** لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر **﴿أن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾** بلى إن تصبروا وتشقوا ويأتوكم من فورهم هذا **﴿أي: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾** أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: **﴿وإن تصبروا وتقفوا لا يضرركم كيدهم شيئاً﴾** وما جعله الله **﴿أي: إمداده لكم بالملائكة﴾** إلا بشرى **﴿تستبشرون بها وتفرحون ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله﴾** فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين لبيين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال **﴿عند الله العزيز﴾** فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مديرون تحت تدبيره وقهره **﴿الحكيم﴾** الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: **﴿ذلك ولو**

﴿والله وليهما﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما إنما هما بهذه العصية العظيمة وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾** ثم قال **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** فيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمن أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبيري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:

﴿١٢٣ - ١٢٦﴾ **﴿ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾** إذ تقول للمؤمنين أن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين **﴿بلى إن تصبروا وتشقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾** وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم **﴿وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وقرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكالك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة**

ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونونه ويودون حصوله، فقال: **﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾** وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: **﴿فقد رأيتهم﴾** أي: رأيتهم ما غنيتهم بأعينكم **﴿وأنتم تنظرون﴾** فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن غنيت ذلك، وحصل له ما غنيت، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره غنيت الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وستجزى الشاكرين﴾**

يقول تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾** بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: **﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾** إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما ويخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثال أمر ربه، فقال: **﴿وسيجزي الله**

من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمة عباده المؤمنين، أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم القيم، **﴿والله لا يحب الظالمين﴾** الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضاً بدم المنافقين، وأنهم مغضوبون لله، ولهذا نبطهم عن القتال في سبيله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فبطهم وقيل أقدوا مع القاعدين﴾

﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، ويتخلصون منهم - ويمر - من المؤمن من المنافق، ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك، ليمحى الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾** هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا تخضرب بالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وأبتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك التعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب عند أرباب الصائر منحاً يسرون بها، ولا يبالبون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لعباده المؤمنين، ومقرباً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: **﴿ولا تنوا ولا تحزنوا﴾** أي: ولا تنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم هذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المثيق ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال [تعالى]: **﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾**.

ثم سألهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: **﴿إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾** فأنتم وإياهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: **﴿إن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾**.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هذا أيضاً من الحكم أنه يتبلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في السراء والسراء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله

الشاكرين ﴿ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال . وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه ، فقد رئيس ولو عظم ، وما ذلك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم قام به غيره ، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان ، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس ، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم . وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجلها بإذن الله وقدره وقضائه ، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب ، ومن أراد بقاءه ، فلو أتى^(١) من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله ، وذلك أن الله قضاء وقدره وكتبه إلى أجل مسمى : ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلق به إرادتهم ، فقال : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ كلاً نمُدُّ هؤلاء هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

﴿ومستجزي الشاكرين﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته ، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر ، فله وكثرة وحسناً .

﴿١٤٦ - ١٤٨﴾ ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ هذا تسلية للمؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعالهم ، وأن هذا أمر قد كان متقدماً ، لم تنزل سنة الله جارية بذلك ، فقال : ﴿ وكأين من نبي ﴾ أي : وكم من نبي ﴿ قاتل معه ربيون كثير ﴾ أي : جماعات كثيرون من أتباعهم ، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة ، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك .

﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ أي : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا ، أي : ذلوا عدوهم ، بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال : ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ .

ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم ، فقال : ﴿ وما كان قولهم ﴾ أي : في تلك المواطن الصعبة ﴿ إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ والإسراف : هو مجاوزة الحد إلى ما حرم ، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان ، وأن التخلي منها من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر ، بل اعتمدوا على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين ، وأن ينصرهم عليهم ، فجمعوا بين الصبر وترك ضده ، والتوبة والاستغفار ، والاستنصار بربهم ، لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ من النصر والظفر

والغنيمة ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الفوز برضا ربهم ، والتعظيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكذات ، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ، فلماذا قال : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ في عبادة الخلق ومعاملة الخلق ، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء الموصوفين^(٢) .

﴿١٤٩ - ١٥١﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وما وهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ .

وهذا نهي من الله لنموذجين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين ، فإنهم إن أطاعوهم لم يربدوا لهم إلا الشر ، وهم [قصدهم]^(٣) ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذ حذوهم ولياً وناصراً من دون كل أحد ، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب ، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم ، وقالوا : كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، فانصرفوا خائنين ، ولا شك أن هذا من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن يقطع

(٣) زيادة من هامش ب .

(٢) في ب : المؤمنين .

(١) في ب : فلو وقع .

طرفاً من الذين كفروا، أو يكتيهم
فيقبلوا خائبين، وهذا من الثاني.

ورسوله .

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين
أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم
من يريد الآخرة﴾ وهم الذين لزموا أمر
رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا .

﴿لم صرف لكم عنهم﴾ أي : بعدما
وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله
وجوهكم عنهم، فصار الوجه
لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً،
ليبين المؤمن من الكافر، والناطق من
العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه
المصيبة ما صدر منكم، فلماذا قال :

﴿ولقد علما عنكم والله ذو فضل على
المؤمنين﴾ أي : ذو فضل عظيم عليهم،
حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم
لشراعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم
على مصيبتهم .

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر
عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً
لهم . إن أصابتهم سراء فشكروا
جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم
ضراء فصبروا، جازاهم جزاء
الصابرين .

﴿١٥٣ - ١٥٤﴾ ﴿إذ تصعدون
ولا تلوون على أحد والرسول يدهوكم
في الحراكم فأثابكم بما بغم لكم﴾
لمحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم
والله محبهم بما تعملون * لم أنزل
عليكم من بعد الغم أمناً ناعساً بغمي
طائلة منكم وطائلة قد أهنتهم أنفسهم
يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية
يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل
إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما
لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من
الأمر شيء ما قلنا هاهنا قل لو كنتم في
بهوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال
إلى مهاجمهم وليبني الله ما في
صدوركم وليرحم من في قلوبكم
والله عليهم بدأت الصدور * يذكرهم
تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن
القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال :
﴿إذ تصعدون﴾ أي : تجذون في الهرب
﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي : لا يلوي
أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه،
بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن

ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء
الرعب في قلوب الكافرين، فقال :
﴿بما أثيركموا بالله ما لم ينزل به
سلطاناً﴾ أي : ذلك بسبب ما اتخذوا
من دونه من الأنداد والأصنام، التي
اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم
الفاسدة، من غير حجة ولا برهان،
وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن،
فمن ثم كان المشرك مرعوباً من
المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق،
وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق،
هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة
فأشد وأعظم، ولهذا قال : ﴿وما أراهم
النار﴾ أي : مستقرهم الذي يأرون إليه
وليس لهم عنها خروج، ﴿وربما يملؤن
الظالمين﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم
صارت النار مثواهم .

﴿١٥٢﴾ ﴿ولقد صدقكم الله وعده
إذ يحسونهم بإذنه حتى إذا فصلتم
وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما
أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا
ومنكم من يريد الآخرة لم صرف لكم
عنهم ليعلمكم ولقد علما عنكم والله ذو
فضل على المؤمنين﴾ أي : ﴿ولقد
صدقكم الله وعده﴾ بالنصر، فنصركم
عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطققتهم
فيهم قتلاً، حتى صرتم سبياً
لأنفسكم، وعوتوا لأعدائكم عليكم،
فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف
والخور وتنازعتم في الأمر الذي فيه
ترك أمر الله بالاختلاف وعدم
الاختلاف، فاختلفتم، فمن قائل تقيم
في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ،
ومن قائل : ما مقامنا فيه وقد انهزم
العدو، ولم يبق محذور، فعصيتهم
الرسول، وتركتهم أمره من بعد ما
أراكم الله ما تحبون وهو اتخذال
أعدائكم؛ لأن الواجب على من
أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من
غيره .

فالواجب في هذه الحال خصوصاً،
وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله



القتال .

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير،
إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء،
ويباشر الهيحاء، بل ﴿الرسول
يدهوكم في آخركم﴾ أي : مما يلي
القوم يقول : ﴿إلى عباد الله﴾، فلم
تلتفتوا إليه، ولا عرجمت عليه، فالفرار
نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول
الموجبة لتقديمه على النفس، أعظم لوماً
بتخلفكم عنها، ﴿فأثابكم﴾ أي :
جازاكم على فعلكم ﴿بما بغم﴾ أي :
بغماً يتبع غمماً، غم فوات النصر
وفوات الغنمة، وغم بانهزامكم، وغم
أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن
عمداً ﷺ قد قتل .

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره
لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور
لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال :
﴿لكيلا يحزنوا على ما فاتكم﴾ من
النصر والظفر، ﴿ولا ما أصابكم﴾ من
الهيزيمة والقتل والجراح، إذا تحققت أن
الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك
المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي
عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن
البلايا والمحن من الأسرار والحكم،
وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته
بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم،
ولهذا قال : ﴿والله خبير بما
تعملون﴾

ويحتمل أن معنى قوله : ﴿لكيلا

من سلطان .

قال تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا فلو واخذهم لاستأصلهم .

﴿إن الله غفور﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكسفة، ﴿جليم﴾ لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنباء إليه، والإقبال عليه .

ثم إن تاب وأتاب قبل منه، وصيره كأنه لم يجرم منه ذنب، ولم يصدر منه عيب، فله الحمد على إحسانه .

﴿١٥٦ - ١٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ولما ألوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾ ولعن قتلهم في سبيل الله أو منتم للمفسدة من الله ورحمه خير مما يجمعون ﴿والذين ماتوا أو قتلوا لئلا الله يحضروهم﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم .

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب : ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي : سافروا للتجارة ﴿أو كانوا غزى﴾ أي : غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون القدر ويقولون : ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى : ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ ولكن هذا التشكيذ لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول، وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيؤمنون ويسلمون،

يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى .

﴿يجمعون﴾ يعني المنافقين ﴿في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال : ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء﴾ أي : لو كان لنا في هذه الواقعة رأي، ومشورة ﴿ما قتلنا هاهنا﴾ وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتركية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله : ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الناهين كتب عليهم القتل﴾ لبرز مهاجمهم ﴿فبالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة، ﴿وليجلسي الله ما سي صدوركم﴾ أي : يجتري ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، ﴿وليجمحمس ما في قلوبكم﴾ من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة .

﴿والله عليهم بلدات الصدور﴾ أي : بما فيها وما أكتنته، فاقترضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب، ما به تظهر حجابات الصدور وسرائر الأمور .

﴿١٥٥﴾ ثم قال تعالى : ﴿إن الذين تولوا منكم يوم اللفظ الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد هلكنا بهم إن الله غفور حلیم﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم . فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم



تولوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم

يعني : أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات : ﴿ثم أنزلنا عليكم من بعد الغم﴾ الذي أصابكم ﴿أمنة نعاساً يفتشى طائفة منهم﴾ .

ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتشبث لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس .

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصالحة إخوانهم المسلمين . وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قد

أمنتهم أنفسهم﴾ فليس لهم هم في غيرها، لثقاتهم أو ضعف إيمانهم، فلهمذا لم يصيبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ وهذا استفهام إنكاري، أي : ما لنا من الأمر - أي : النصر والظهور - شيء، فأساؤوا الظن بربهم وبيدته ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفصلة والقاضية على دين الله، قال الله في جوابهم : ﴿لل إن الأمر كله لله﴾ الأمر

فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة .

قال الله رداً عليهم: ﴿وَاللَّهُ يَجِيءُ وَبِمِيتٍ﴾ أي: هو المنفرد^(١) بذلك، فلا يغني حذر عن قدر .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم .

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلًا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!؟

﴿١٥٩﴾ ﴿فَبِمَارْحَمَةِ اللَّهِ لَتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن أنت^(٢) لهم جانبك، وخففت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتلوا أمرك .

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ أي: سيء الخلق ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه، ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء .

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،

فكيف بغيره!؟

اليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله .

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان .

﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدينية ما لا يمكن حصره: منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله .

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث - اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد^(٣) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهودهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة .

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول .

ومنها: ما تنتجها الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطيء في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً -: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ فكيف بغيره!؟



ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾ أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه، اللاجئين إليه .

﴿١٦٠﴾ ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه .

﴿وإن يخذلكم﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟﴾ فلا بد أن تتخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق .

وفى^(٤) ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقديم المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله

(٤) في ب: وقد .

(٣) في ب: يستبد .

(١) في ب: المنفرد .

(٢) في الأصل: (لت).

حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمهما، وأثبتها في النوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأسماء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

﴿١٦٤﴾ **﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: **﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾** يعرفون نسبة، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحاً لهم، مشفقاً عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

﴿ويزكيهم﴾ من الشريك، والمعاصي، والردائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

و **﴿يعلمهم الكتاب﴾** إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: **﴿يتلو عليهم آياته﴾** المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، **﴿والحكمة﴾** هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، **﴿وإن كانوا من قبل﴾** بعثة هذا الرسول **﴿لفي ضلال مبين﴾** لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يركي النفوس ويظهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ونو ناقض

أعدائهم، لأن معرفته بنوعهم، مستلزم لرفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: **﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾** أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: **﴿ومن يغفل يأتي بما غل يوم القيامة﴾** أي: يأتي به حاملة على ظهره، حيواناً كان أو متاعاً، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة، **﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت﴾** الغال وغيره، كل يوفي أجره ووزره على مقدار كسبه، **﴿وهم لا يظلمون﴾** أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزائه، وكان الاقتصار على الغال يوهم - بالفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿١٦٢-١٦٣﴾ **﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله وماواه جهنم وبئس المصير﴾** هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون **﴿يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك، ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله.**

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً، لا يستويان﴾ ولهذا قال هنا: **﴿هم درجات عند الله﴾** أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنزلتهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين، كل على



توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿١٦١﴾ **﴿وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأتي بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾** الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، [واختيانه في كل مال يتولاه الإنسان]^(١) وهو محرم إجماعاً، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغفل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأثمر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدينهم ويقدر فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً، وأظهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكيمته **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**.

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدر فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من

(١) زيادة من هامش ب.

ذلك عقول العالمين .

﴿ ١٦٥ - ١٦٨ ﴾ **﴿ أولما أصابتكم مصيبة ﴾**

مصيبة قد أصبتم مثلها فلتعلم أني هذا لل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير * وما أصابكم يوم القلي الجمعان ليجازن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نالوا وقيل لهم نالوا فالتوا في سبيل الله أو ادفوا فالتوا لو تعلم لقالا لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس لهم في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين نالوا لإخوانهم ولعدوا لو أطاعونا ما نلقوا لل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين ، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد» ، وقتل منهم نحو سبعين ، فقال الله : إنكم **﴿ قد أصبتم ﴾** من المشركين **﴿ مثلها ﴾** يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين ، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم ، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم ، فإن قتلكم في الجنة وقتلاهم في النار .

﴿ فلتعلم أني هذا ﴾ أي : من أين أصابتنا ما أصابتنا وهزمتنا ؟ **﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾** حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، فعودوا على أنفسكم باللوم ، واحذروا من الأسباب المردية .

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله ، فإنه قادر على نصركم ، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم . **﴿ ذلك ولو يشاء الله ، لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضكم ببعض ﴾** .

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان ، جمع المسلمين وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة ، أنه ياذنه وقضائه وقدره ، لا مرد له ولا بد من وقوعه . والأمر القدري - إذا نفذ ، لم يبق إلا التسليم له ، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة ، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق ، الذين لما أمروا

بالقتال ، **﴿ وقيل لهم نعالوا فالتوا في سبيل الله ﴾** أي : ذنباً عن دين الله ، وحماية له وطلباً لرضاة الله ، **﴿ أو ادفوا ﴾** عن محارمكم وبلدكم ، إن لم يكن لكم نية صالحة ، فأبوا ذلك واعتذروا بأن **﴿ التالوا لو تعلم لقالا لا تبعناكم ﴾** أي : لو تعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لا تبعناكم ، وهم كذبة في هذا . قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين ، قد مثلوا من الخنق والغيبظ على المؤمنين بما أصابوا منهم ، وأنهم قد بدلوا أموالهم ، وجعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد ، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم ، متحرقين على قتالهم ، فمن كانت هذه حالهم ، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم ، هذا من المستحيل ، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر ، يروج على المؤمنين ، قال تعالى : **﴿ هم للكفر يومئذ ﴾** أي : في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين **﴿ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس لهم في قلوبهم ﴾** وهذه خاصة المنافقين ، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم .

ومنه قولهم : **﴿ لو تعلم لقالا لا تبعناكم ﴾** فإنهم قد علموا وقوع القتال . ويستدل بهذه الآية على قاعدة «ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما ، وفعل أدنى المصلحتين ، للعجز عن أعلاهما» ؛ [لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين ، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان] **﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾** فييديه لعباده المؤمنين ، ويعاقبهم عليه .

ثم قال تعالى : **﴿ الذين نالوا لإخوانهم ولعدوا لو أطاعونا ما نلقوا ﴾** أي : جمعوا بين التخلف عن الجهاد ، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله

وقدره ، قال الله ردا عليهم : **﴿ قل فادروا ﴾** أي : ادفوا **﴿ من أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾** إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا ، لا تقدرتون على ذلك ولا تستطيعونه . وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان ، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى .

﴿ ١٦٩ - ١٧١ ﴾ **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾** فرحون بما آفاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم ، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه ، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتالهم وتعزيتهم ، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة ، فقال :

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ﴾ أي : في جهاد أعداء الدين ، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله **﴿ أمواتاً ﴾** أي : لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا ، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها ،

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٣﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٤﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٨﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٦﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٠﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩١﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٢﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٣﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٤﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٥﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٦﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٧﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٨﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩٩﴾
وَأُولَئِكَ فِي حَيَاةٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠٠﴾

(١) زيادة من هامش : ب . (٢) في ب : الكريمات . (٣) في ب : فضل .



به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وإن الله لا يهضم أجر المؤمنين﴾ بل ينميهم ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات تعميم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتشير بعضهم بعضاً.

١٧٢ - ١٧٥ ﴿السلطه يسس

استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم والقرأ أجر عظيم﴾ الذين قال لهم الضاس إن الناس ضد جمعوا لكم فإخشوهم لئلا هم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يحسبهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخالفون إن كنتم مؤمنين﴾ لما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، نذب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «جرا الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إن الضاس ضد جمعوا لكم﴾ وهووا باستئصالكم، تخوفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالا عليه.

﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كافيها كل ما أهدنا ﴿ونعم الوكيل﴾ المقوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم.

﴿فأنقلبوا﴾ أي: رجعوا ﴿بنعمة من الله وفضل لم يحسبهم سوء﴾ وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،

حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم ثم قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ أي: إن ترهب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضُف. ﴿للا تخافوهم وخالفون إن كنتم مؤمنين﴾ أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدرة، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه^(١) المستجيبيين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعمل قدر إيمان العبد يكون خوفة من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

١٧٦ - ١٧٧ ﴿ولا يحزنلك

الذين يبايعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ إن الذين استغروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب اليم﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿ولا يحزنلك الذين يبايعون في الكفر﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضررون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له

الذي يحذر من فواته، من حين عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عند ربهم﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكشورته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم^(٢) النعيم والسرور، وجعلوا ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿الأخوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ أي: يبنى بعضهم بعضاً، بأعظم مهناً

(١) في النسختين: فتم له.

(٢) في النسختين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.